من حياة رجل فاقد الذاكرة

أو الحمراوي

رمضان الرواشـدة

٩ر٣ع٨

رمضـ رمضـان اسماعيل الرواشدة

من حياة رجل فاقد الذاكرة / رمضان اسماعيل

الرواشدة . عمان : (د . ن) ،١٩٩٢

(٦٨) ص

ر . أ (٥٢٢ / ٨ / ١٩٩٠)

١ ـ الرواية العربية ـ العصر الحديث أ ـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

رقم الإجازة المتسلسل ٤٧٥/ ٨ / ١٩٩٠

الطبعة الأولى ـ ١٩٩٢م

من حياة رجل فاقد الذاكرة

أو الحمراوي

رواية

رمضان الرواشدة

الإهـــداء

إلى ســـهـاد

الفصل الأول

« أنا من أهوى
ومن أهوى أنا
حتى إذا رأيتني . . . رأيتنا »

ـــ الحلاج ـــ

عندما دخلت المدينة لم يدر بخلدي أن ذلك سيحدث لي ..

كانت أمي التي عاشت سنين طويلة في قريتنا البعيدة ثم انتقلت الى المدينة قد اخبرتني بكل شيء عن المدينة التي ادخلها اول مرة في حياتي ، إلا انها لم تكن تعلم ما سيحدث لي مساء يوم الجمعة الخامس عشر من شهر حزيران من سنة غير معلومة ...

عندما كنت في المدرسة الإبتدائية في قريتنا علمّنا مدرس اللغة العربية أن نحب الوطن والعروبة ونكره الاستعمار وعندما افقت على نفسي في المرحلة الثانوية اصبحت ذا هوى ونزعة عشقية اغرمت بقيس وجميل وكثير وغيرهم وتمنيتني اموت كميتة قيس في هوى ليلى أو اجن كجنون قيس في لبنى.

أصدقكم القول أنني فوجئت كما ستفاجأون بما حدث لي أنا العاشق المتيم الملوع بالهوى والعشق الابدي ... قال لي الطبيب علتك قلبك فخفق وارتجفت حتى خلتني اسقط عن مقعدي ، اصفر لوني واحمر لا انكر ثم ازرق واصبح وجهي قوس قزح من غير شتاء فقلت لكنني عاشق مبتلى فأخبرني سري قائلا ان مقتلي قلبي وقلبي مقتلي ، حرت فيما نكر وصيبته يطرح لغزاً عصي الفهم كقصة عمران الحمراوي . .

عمران الحمراوي رجل شجاع كان يسكن قريتنا الجنوبية البعيدة. كان ابا لعشرة اطفال شهما عنيداً يساعد في العونة ويشارك الناس حزنهم ولهوهم . قلبه عطوف على الاقارب وذوي الرحم كما كان يقول والحمراوي ـ هكذا اسمه او لقبه ـ اسم على مسمى ، كان احمر اللون من غير سواد لفحته نيران الصحراء الجنوبية واللهث وراء لقمة العيش على الطريق الصحراوي الطويل ، كنت مولعا به شديد الميل الى احاديثه عن حياته السابقة وخدمته في البلاد التي ضاعت وعشق النابلسيات وزجاجات العطر التي اهديت له من صبايا حسان وما زال يحتفظ بها .

وعمران كمعظم شبيبة ديرتنا نخوجي ، ينتخي لكل طالب عون ، واذكر ان امرأة من قرية مجاورة كانت حاملا فأرسل اهلها يستصرخونه في لياليها القاسية كي يجلب سيارة قريب له لينقلوها الى المدينة لتلد مولودها الاول ، واذكر ان عمران فعل المستحيل للعثور على الصمد علي

صاحب السيارة الوحيدة في القرية فما كان منه الا أن يمم صوب قرية بعيدة نسبيا ، لا أحد يعرف كيف وصلها بهذه السرعة إلا أن الناس تناسوا الأمر عندما أحضر سيارة غريبة عجيبة لا يدرون من أين ولا من هو صاحبها . نقلت المرأة الى المدينة حيث ولدت مولودتها الاولى التي اسموها عنودا لأنها عاندت الأطباء وعاندت امها ورفضت الخروج الى هذا العالم الذى لا يحفل بالأيتام إلا بعد عناء طويل .

المهم ان عمران اصبح اسطورة القرية وأما السيارة فلم يعد أهلنا يرونها بعد ذلك . عندما سألت عن حقيقة تسمية عنود ، قيل لي أن تلك اسطورة حدثت بقريتنا قبل خمسة قرون عندما كان البدو يغيرون على الريف ويستبيحون كل شيء فكان الناس من الفاقه يخافون على نتاج حصادهم وعلى بناتهم ، وفي تلك المرابع كان شيخ جليل اسمه طالب له ابنة كالقمر يقال لها العنود ، لم يسبقها احد في تلك الديار حتى في اسمها . كانت مضافة ابيها عامرة وكانت العنود تسامر الرجال ، عالمة بالاحاديث والاشعار وقصص الغابرين.كانت العنود على جانب كبير من الفتنة فعشقها الشيخ مكازي ، شيخ قبيلة البدو المجاورة فطلبها من ابيها فماطل بالرد حتى يأخذ رأيها ، وهو أمر جلل ونادر الحدوث في قريتنا في تلك الاحيان فرفضت بشموخ وأباء القروية العزيزة النفس ، فكيف تساق الى البدوي الذي طالما روّع أهل قريتها . وعندما تناهى الخبر الى الشيخ مكازي استشاط غضبا وجهز جيشه غازيا ، وعلى ذمة الرواة - وذمتهم واسعة - أن الشيخ مكازي جهز جيشاً عظيما كالطوفان على رأسه ألف قائد تحت كل قائد ألف فيلق في كل

فيلق ألف جندي ، وسار إلى القرية غازياً .

وصلت أنباء الغزاة الى أهل العنود فحاروا في الامر وتنبأوا بهلاكهم كهلاك قوم عاد وثمود ، إلا أن العنود تفتق ذهنها عن خطة فريدة لا قبل لا أحد بها تقضي بأن يقوم الجميع بحفر خندق عميق بينهم وبين ربع مكازى ويتم تغطية الخندق بالشجر والتراب كحيلة لأسر مكازي وربعه .

سار مكازي بجيشه العرمرم يمنّي النفس بالنصر والفوز ببكارة العنود التي استعصت على الكثيرين قبله . وتقول الحكاية ، التي اشك في صحة وقوعها او روايتها كما الاحاديث المدسوسة ، ان الجيش وقع في المصيدة التي نصبها اهل العنود فعمّت الفرحة الديار واسر الشيخ مكازي ووضع في حفرة حفرت خصيصا له امام المضارب وانقطع خبر مكازي بعد ذلك وتفرق جيشه وتاه في الصحراء والجبال . اما العنود فقيل في امرها العجب العجاب .

بينما كانت العنود سائرة تغني ورفيقات دربها الى مياه الغدير في اسفل القلعة القديمة ليلاً ، شاهدت النسوة شيئا كالنور يخرج من النبع ويخطف الأبصار وكذلك العنود . وعندما رجعت النسوة حرن في أمر العنود فتباكين عليها ، وعمّ الحزن الشديد الديار ، واقيمت الولائم للشيخ التقي ابي سليمان المقام ضريحه في جانب من البلدة علّه يشفع برجوع العنود ، لكنها ما رجعت واصبحت ذكرى وحكاية تحولت الى اسطورة في ذاكرة الشعب لمئات السنين .

وشبيه بذلك ما حصل مع عمران الحمراوي .

كان الحمراوي يحب الصيد . ذهب يوما للصيد مع جمع من الرفاق في الأودية السحيقة المحيطة بالقرية وقلعتها التي بناها الصليبيون ، وكان الحمراوي معروفا بشجاعته الفائقة ، الا ان ما حدث في ذلك الصباح ، كما يروي اهل القرية هو أنه خرجت على الرفاق جمع من الصبايا الحسان الناهدات بلباس غريب لم يروا قبله ولا بعده وحاولن استمالتهم ، فأبوا وانكروا ان يخالفوا شريعة من استن الشرائع ودار قتال عنيف بينهم وبين الصبايا الحسان اللواتي ابدين مقدرة عجيبة على القتال ، سقط على اثره جمع من شبان القرية وسالت الدماء وقيل انها سالت كالانهار من واد لواد .... وعندما رجع بعض الرجال لم يكن الحمراوي بينهم ، حتى انهم لم يعثروا على جثته فذكرهم ذلك بالعنود مرة اخرى . اقيمت المناتح اياما وليالي ثلاثا ثم بدأت الحكاية بالتلاشي وذهب مذهب الأمثال ، سارت مع الرياح .

ما ذكرني بعمران هو قصتي في المدينة والمدينة كما أوصتني أمي تبلع الجميع كالحنش الذي ظهر في قريتنا وتسلط على الدجاج يلتهم الواحدة تلو الأخرى حتى أقفرت بلادنا من الدجاج الى أن أنتهى الأمر بنصب كمين للحنش وأصطاده الرجال وقيل يومها أن طوله بلغ سبعين مترا وأن مائة رجل حاولوا تثبيته وأخذه حيا فأستعصي الأمر عليهم فقتلوه وجيء به الى القرية كي يشاهده الجميع .

لم أكن أدرى بما سيحدث لي في المدينة . لكنني عندما تركت طبيبي العزيز بعد أن أخذت منه وصفة طبية ألى الصيدلية كي أحصل على

الدواء وهنالك حدث ما لم أكن أتوقع .... ذلك الصيدلي ذو الوجه الجميل والأنيق الملبس والمظهر نظر الي محدقا وكأنه يرى غولا بشعا او أنه شاهد ما ليس مألوفاً ، مع أن مظهر جدّ عادي وملابسي مودرن ولا أختلف عن هؤلا البشر . يا سيدي أنا لم آت من الفضاء فلماذا تنظر الي هكذا ، صحتُ بوجهه . كان بضعة أشخاص في الصيدلية من بينهم فتاة خيّل الي أنها مساعده الصيدلي لأنها تلبس ثوبا ابيض مما يلبسه الأطباء والصيادلة عندما صرخت أقتربت من الطاولة وحاولت النظر إليّ ، ما أفزعني هو أنها فتحت فمها على وسعه ورفعت حاجبيها فسقطت نظارتها على الأرض فتكسرت محدثة ضجة غير عادية ، إنتبه الجميع وأقتربوا . حرت أنا ما الخبر ، من أين لي بهذه المشكلة الجديدة . ما بال الناس في هذه المدينة يحدقون بي وكأنني جئت من خلف الأمواج البعيدة السابحة في دنيا الفضاء الرحب هل يكونون قد تأثروا بحكايات الأطباق الطائرة التى حدثت مؤخرا في الأتحاد السوڤياتي وكما حدث قديما مع الحاجة سارا .....

كانت الحاجة سارا مع " المعازيب " على البيادر في وقت الحصاد ، وفي لية قائظة خرجت من خيمتها المنصوبة وكان من عادة الأهل أن "يُمَرِحوا" في مكان الحصيدة البعيدة عن بيوتهم ، خرجت لتتمشى ولتطرد ما كان يقلقها إثر زعلها مع زوجها وما كادت تمشي خطوات قليلة حتى وقف شعر رأسها لما رأت .... قيل أنها أخبرت الجميع بعد أنْ أفاقت من غيبوبتها التى دامت ستاً وعشرين سنه ، أن السماء إنقلبت وأنّ القيامة إقتربت وأخذت توجه النصيحة لمن بقي على

قيد الأحوال المدنية من جيلها ولمن جاء بعدها ، المشدوهين بنومها العميق الطويل .

رفضت الحاجة سارا التصريح بكل ما رأت ، وتحدثت بعد الحاح شديد من أهلها ومن مندوبي الصحافة ووكالات الأنباء الأجنبية التى ما ترددت لحظة طيلة السنين تلك عن نسج الأساطير حول نومها مستعيدين قصة أهل الكهف ، وكتب بعض الكتاب قصصا عنها ، وصدرت رواية خيالية حولها ترجمت الى الأنجليزية وأشاعت الصحافة المتعاونة مع الكاتب أنّه مرشح لنيل جائزة نوبل للأدب .

أما روايتها فعلى ما أذكر أو ما تبقى في ذاكرتي ، وكنت انذاك طفلاً شقيا يستهويه مقاعد الرجال وذوي الحكمة في العشيرة والبلدة فتقول أنه بينما كانت تتمشى شاهدت شيئاً عجيباً ، اقسمت أنها رأت أشخاصا يشبهوننا ينزلون من على بساط دائري أخضر اللون ، يلبسون ملابس خضراء فضفاضة ولهم لحي طويلة تصل أو تكاد الى ركبهم ، وأن شيخهم ـ هكذا قالت ـ مّد لها يدأبيضاء ناصعة كالثلج فخافت وارتعبت ، الا أنه هدأ من روعها وأخبرها أن النجوم إختارتها وصيفة مملكة الجندراتسو مالا " وهيمملكة تقع شمالي كوكب أورانس البعيد وتحكمها النساء ويعمل الرجال فيها في صناعة المراكب الفضائية وفي خدمة النساء ، وحدثّها عن ملكة « الجندرا تسو مالا » التي ورثت الحكم عن امها « الشاهنا سيدرا العظيمة » امبراطورة درب التبانة لا ينازعها في حكمها حاكم .

ذهلت الحاجة سارا بالكم من المعلومات والأسماء الغريبة عنها

فرفضت الذهاب الى تلك المالك ، فهددها الشيخ بالموت قائلا لها تموتين غريبة الدار واللسان يا سارا . فحكت سارا قائلة لقد قالها المتنبي قبلك ، حاولت العودة بسرعة الى المضارب فلحقوا بها ومن هول الصدمة والخوف وقعت على الارض وارتطم رأسها بصوانه كبيره ، وكان آخر ما سمعته « ستنامين طويلا إياك ان تتحدثي بما سمعت او رأيت لأن بذلك فناءك » واختـفـوا .. لم تفنى سـارا وعـاشت بعـد ذلك طويلاً.

لكن الغريب في الأمر ان الحاجة سارا عندما نظرت اليٌ كانت الدموع تترقرق في عينيها فهلعتُ وخفتُ الاّ أنها ضمتني الى صدرها وأعطتني قليـلاً من الحلـوى والقضامـة وقـالت لي لك الله يا بني ، لـك الله ! إياك وشرور النفس المليئة بالأقوام الغابرين ، لا تدع عاد وثمود تعود الى نفسك الطيبة الرضية . حينها لم افهم عاد او ثمود وركضت ألهو مع اترابي في الساحة المجاورة .

.... قلت للصيدلي هيا أعطني الدواء ودعني اغادر هذه المدينة الملعونة . دخل شرطي الى الصيدلية عندما رأى الجموع تتواكب لرؤيتي بحيث أغلقت الشوارع الرئيسية في شارع « الجاردنز » والشوارع الفرعية المحيطة به سواء الذاهبة الى الشميساني او الى تلاع العلي ، وتعالى صفير السيارات وأبواق سيارات الشرطة تأمر السائقين بتحريك سياراتهم ، لكن السائقين كانوا قد نزلوا لرؤية الحدث الجلل . حاول الشرطي ان يفسح الطريق للضابط الذي دخل للتحقيق في الأمر . أشار الجميع الي ، اقترب مني ، وعندما وصل

وقف قليلا وكان اشجعهم ، تقدمُ مني وحدق بي مطولاً ... وصاح بي أنت !

قلت له نعم ... انا ؟ !

قال ولكن كيف حصل هذا ؟

قلت له ببراءة .. هكذا . جئت الى الصيدلية كي آخذ الدواء .

قال لي ما هكذا قصدت ، ، لكنك ... وعاد الى التحديق بيّ مرة اخرى ومد يده ليلمسني ، كانت يده ترتعش وهي تقترب من وجهي الا انه تراجع قبل ان يلمسني فتراجعت جموع الناس الا هو بقي محدقاً ، عندها قلت لا بد أنّ اقطع الشك باليقين نظرت في ارجاء المكان فرأيت مرآة قريبة فقلت في نفسي فلأذهب وارى عل شيئا ما يكون غريبا في سحنتي بالنسبة لهؤلاء . وعندما وصلت المرآة ونظرت فيها ... صعقت من هول ما رأيت ... لم أكن انا الذى أراني ، خفت وهربت مني وتركتني وحيدا وانضممت الى الجموع الهاربة مني ، لكنني أخذت ألاحَقني والجموع تهرب أمامي وأنا ألاحقني وانظر الى الخلف فأشاهدني أعدو ورائي . خفت كثيرا مني وحرتْ اين اذهب .

الآن صدقت انني كنت مختلفا عني وتفسر لغز طالما أرقّني وأوغل صدري بالهموم ، الآن ارتحت لأنني اكتشفت نفسي واكتشفت أنني غيري ...

لكنني ما زال أطاردني منذ ذلك اليوم وأنا هارب مني . حتى جميع الناس كنت أراهم انا يهرب مني ورأيتني يوما مصلوبا قرب بيت لحم ومرة رأيتني أقودُ مسلحا جماعة من الناس في الاحراش .

..... في المــؤتمـر العـالمي لاطبـاء الارواح الذي اجتمــع في سان فرانسيسكو بمشاركة خبراء سوفيات متخصصين فيديناميكيةالذ رات الأثريه المتماوجة ، قدم بعضهم أبحاثا تفسرّ ما جرى مساء ذلك اليوم في شارع "الجاردنز" .

وخلص المؤتمر الى نتيجة واحده طبعت ووزعت على جميع وكالات الأنباء ونشرتها الصحف العالمية والمحلية والمعادية مفادها " ما كان فهو ما يكون ، والذى صنعَ فهو الذى يُصْنع ، فليس تحتَ الشمس جديدٌ " .

❋❋❋❋❋

الفصل الثاني

" وعندما نزلت في الديار الكارثة
تصدى لها أبو حمر ا
وكان ذا مال وعيال
ومن نسله نشأت العرب في تلك الديار"

ــ الراوي ــ

حينما سيبلغ الأمر الى الحفيد الرابع عشر عن قصة الحاجة سارا لا بد أن الجميع يظنون بها وبي الظنون ، فأحببت أن أكتب هذا الأمر لكي لا تختلط الأمور .

الحاجة سارا صاحبة الخبر اليقين سألتها يوماً هل تعرفين الحمراوي .. أقصد عمران ؟ من الذي سمّاه بهذا الأسم ؟ .

قالت .. كانت هذه البلاد مرتعا للغزاة على مر العصور فقد سكنها الصليبيونوالأيوبيون وغيرهم الى أن قدم الى البلاد شخص يدعى عز الدين أبو حمرا كان فارسا لا يشق له غبار وقيل عنه الحكايات الكثيرة فقد أنجب عشرة رجال كانوا ابطال الحرب مع البدو والديار المجاورة في زمن ضجّ بالغزوات والتنكيل ، وفي ذلك الزمن كان الناس من شدة الهلع والخوف يلتجئون الى القلعة القديمة يحتمون بحصونها المنيعة .

وعندما حاصر الغزاة هذه البلاد التجأ الناس الى القلعة التي يقال أن فيها بئرا تصل اليه عبر درجات عددها ثلاثماية وأربع وستون درجة فيه ماء لا ينضب . وعندما بقي الناس محاصرين مدة ثلاثة أشهر تفتق ذهن الأمير عز الدين أبو حمرا عن خطة داهية فطلب من الرجال أن ينضحوا الماء من البئر ويسكبوه من خلال فتحات وطاقات القلعة الشامخة فأخذ الرجال الأمر بأقصى درجات السرعة وبدأوا بسكب الماء ، ولما راى الغزاة ذلك أيقنوا أن المحاصرين يستطعون الصمود مددا طويلة ففضلوا الأنسحاب ، فأقيمت الولائم والاعراس الشعبية أبتهاجا بهذا النصر الذى حققه الشعب ضد الغزاة . ومن يومها أصبح أسم الأمير عز الدين أبو حمرا في ذاكرة شعبه الذى دافع عنه دفاع المستميت.

قالت الحاجة سارا أنه جاء على العرب هنالك زمان أكلوا فيه ما جمعوه في سنين ، وامحلت الأرض وجفت ينابيع القلعة التي قيل أنها لا تجف ، لأنها تنبع من بحر تحت القلعة .

أخبرت الشرطي عندما اقتادني من زاوية الصيدلية في شارع « الجاردنز » بكل ذلك لكنه لم يفهم مرادي ولم يع ما اقصد ، فأنبهر وكأنني أروي له قصة داحس والغبراء أو الزير سالم الذى بنى هرما من رؤوس السباع التي اصطادها . قلت للشرطي أن "الناعسة" بنت الحاجة سارا كانت في زمانها معشوقة الرجال لما تتمتع به من خصال الخير والكرم والجمال ، وكان أبوها رجل العشيرة الأول لا ينازعه في ذلك منازع . فإستنكر الشرطي ذلك وحدثني عن تفاهة ما أقول وقال

لي .. كان ذلك منذ زمن والعشيرة الآن أنقضت ولم تعد باقية فمن يحميك منا .

قلت له .. كانت الناعسة فاتنة الجميع ، خطفت الالباب بجمالها الفتآن لكنها وقعت في حب الفقير سمعان لما يتمتع به من خصال وكان عازف ربابة وشاعرا يتغزل بالنسوة الذاهبات الى مياه النبع القريب من القرية ويهجو من لا يحلو له .

كان سمعان هذا داهية ذا لسان سليط لا يعجبه العجب العُجاب . قيل أنه كان ينتقل من قرية الى قرية يمتدح شيوخها وويل لمن لا يكرمه ويذبح له ويطعمه أحسن الخراف . وفي يوم من الأيام نزل على قرية مجاورة فدعاه شيخها وكان على قدر من البخل فلم يذبح له رغم امتلاكه للكثير من الغنم فأطعم سمعان الخبز باللبن المريس فلم يعجب سمعان ذلك فنام وقد عزم على هجوه . ولحسن حظ سمعان وسوء حظ المعازيب أنه في تلك الليلة هجم الذئب على الغنم التي يمتلكها شيخ القرية وأوسعها ذبحا وتنكيلا .

عندما أفاق الجميع شاهدوا الكارثة ، وقبل أن يغادر سمعان القرية قال قصيدته المشهورة مضرب الأمثال وفيها يهجو العربان التي نزل ضيفا عليها ومطلع القصيدة كما اخبرتني الحاجة سارا التي عمّرت طويلا يقول .

يا عَرَبَ العَرَاقيْـبْ ما عملْتـواْ مَعْنَا طيْبْ
واللهَ عَفيْهِ عَ هاالذيبْ يذبح ما يخاف الخرفان

فتناقلت الالسن القصيدة الى أن وصلت الى قائد المنطقة وكان

شاميا فدعا سمعان الى منزله ذات ليلة لكي "يجرّ" له على الربابة ، حضر سمعان ورفاقه الى بيت القائد الشامي وأبتدأت السهرة ، وبعد أن أنتشى سمعان هجا الحكومة فغضب قائد المنطقة وأمر بنفيه الى بلدة بعيدة جزاء له على ما اقترفت ربابته ، لم يسكت أهل القرية فبعثوا ببرقية الى القائد الأنجليزى في العاصمة تستعطفه فك أسر سمعان فأشفق الانجليزي ولم يشفق الشامي . ورجع سمعان الى القرية فأستقبل أستقبال الأحرار !!

تقول الحاجة سارا اما سمعان فلما قست الأمور عليه وحل المحل ، فضّل الغربة على العيش بالضيق والضنك فأزمع سفرا الى حيفا . بقي يمشي ليالي سبع واياما ثمانية الى أن وصل حيفا .

تعرف سمعان على عدد من العمال العرب واليهود الذين ارشدوه الى العمل مع متعهد إنجليزي ، قابله المتعهد ووظفه بأجر يومي . بقي سمعان يعمل لدى الانجليزي شهورا سبعة وكان يلاحظ بحسه الشاعري التفريق الذى يحدث حيث أن الانجليزي والعمال اليهود كانوا يأكلون في قاعة واحدة ، ومن أشهى الأصناف ، أما العمال العرب فلهم مكان رديء يأكلون أرخص المأكولات وأقلها جودة .

في يوم من الأيام جاء مفتش أنجليزي أيضا ليستطلع احوال العمال وخصوصاً العرب فتصدى له سمعان شاكيا من سوء الأكل ، ومن جملة ما قاله للانجليزي عبارة أصبحت مشهورة ليس لأن سمعان قائلها فحسب بل لاهميتها التاريخية بالنسبة الى الحركة الوطنية وهي " فوود .. ووتر " اي أن الطعام شوربة ورديء جدا .

فكان أن فصله الانجليز من العمل فأضرب العمال وأصبح سمعان رمزا وقائدا عماليا يحرض على الاضراب،وخوفا من تعاظم أمره نفاه الانجليز بعد سجنه الى بلاده . رجع سمعان الى بلاده التي طالما عاش فيها ونسجت حوله الاساطير فقيل أنه كان يهرب السلاح الى المواطنين في فلسطين ليقاوموا الانجليز واليهود وقيل أنه من جماعة عبد الصانع أو ما عرف بأسم "هبوب الريح ". فأنكر سمعان الأمر وفي قرارة نفسه كان سعيدا .

لم يصدق الشرطي أنني أبن سمعان وهي مفاجأة له ،خصوصا وأنه لا يعلم أن أمي الناعسة وأبي سمعان فطلب من الجنود تقييدي لأعترف هل أنا من جماعة عبد الصانع أم لا ؟ سألني الجنود حول ما حدث لي في شارع " الجاردنز " فأخبرتهم الحقيقة ، فظنوا بي الظنون .

.. أما الحمراوي الذى قيل في أمره ما قيل فقد سمعت أن قوماً من البدو عثروا على رجل يشبهه في قعر بئر فحسبوه القديس يوسف فخافوا من اليهود وسلموه لهم فأكرمه اليهود كرامة للرواية المقدسة لكنه فزع من الأمر وأخبرهم أنه من بلدة جنوبية لا دخل لها بالقديس يوسف ممن يزعمون حتى أنه - كما قال - لم يسمع بيوسف ابدا . سألوه عن دينه فحار في الأمر ، فتعجبوا كيف لم يصل الدين الى هذه المنطقة . واطلقوا سراحه بعدما تبين لهم صدقه .

عاد الحمراوي وفي نفسه هوى لرؤية عنود الثانية التي أصبحت بكرا تباهي بانوثتها جميع فتيات المنطقة. وتختال بالملابس التي أحضرها أبوها من العاصمة . كانت عنود الثانية اسماً على مسمىً ،

فاذا هبت الرياح من ناحية قبل أن العنود تحركها ، والناس يحترمون طيشها قررت العنود السفر الى العاصمة لتلقي تعليمها وهو أمر لم يعتد عليه شباب القرية فكيف ببناتها. لكنها العنود التي تكسر كل القيود .

.. قال لي رفيقي في السجن .. هل هذا هو فقط كل أمر هؤلاء القوم قلت له أخالك استمتعت بقصصي ها فكيف لوحدثتك بصباح الشؤوم الذي جرّ على القوم مذابح عديدة جَلَتْ من أجلها بعض القبائل .

قال لي كيف ؟

قلت له ..

كانت تلك المنطقة مسكنا لجميع القبائل الراحلة عن موطنها . سكنها العديدون ومن ضمنهم جماعة عز الدين أبو حمرا ، وقبل مئآت السنوات جاءت قبيلة يقال لها " المساكنة " لانهم كانوا يطعمون المسكين وأهل دين وفيهم خطيب مفوّه علّم أهل الديرة الشعر والاحاديث وبنى في القرية مدرسة متواضعة فتتلمذ على يديه عدد لا بأس به من أهل القرية ، ممن أصبحوا بعد حين زعماء وقادة حربيين وأئمة مفوهين ووصل صيته الى الشام وكانت البلاد بعيدة ، فطلبه حاكم الشام وأكرمه وعينه قاضيا للبلد نيابة عنه .

كان المساكنة عرب ليسوا قليلين شديدو البأس لا يشق لهم غبار وكانو ذوي خصال حميدة طيبة فتزاوجوا مع القرى المجاورة . ولم يعجب ذلك قوم عز الدين أبو حمرا ، فشكلوا حلفا مع " السعادنة " الذين يسكنوا قرية ليست بعيدة وكان هذا الحلف لا غنى عنه أيضا في

مواجهة غزوات " الوهابنة " الذين كانوا يغيرون على بلد " المعاصي " كما أسموها ويريدون أدخال البلاد تحت راية قبيلتهم .

أصبح السعادنه حلفاء ونصراء لقوم أبي حمرا . وفي يوم قاد الحمراوي والسعادنه الجيش وصابحوا المساكنه لذلك سميت المعركة " بالصبيحة " فقتلوا منهم عددا لا بأس به .

قالت الحاجة سارا لعن الله الجهل فالقوم أخوة لكنها " فتنة " هي التي فعلت فعلها في الرجال . كانت فتنة هذه من قوم المساكنة، خطبها رجل من رجالات أبي حمرا الا أنها كانت داهية تتفوق على الرجال وتكيد لهم وتفعل ما بوسعها للايقاع برجال العشيرة ، ولم يكن الامر يعجب زوجها . وفي ليلة جاء بعض الأعراب ضيوفا عند زوجها فلم يعجبها مقدمهم ، ووجدتها فرصة للكيد ، فرفضت ضيافتهم فأستشاط الرجل غضبا ، فكيف تخرق عوائد البلاد التي اعتادها الجميع سنينا طويلة فرمى عليها الطلاق . فأبت أطعام الضيوف وحردت الى بيت أبيها . في اليوم التالي جاء أبوها وأخوة لها ليصلحوا الامر لكن الاستفزازات المتبادله أدت الى التعارك ونشوب القتال بينهم مما أدى الى مقتل أبى فتنة ، فولعت الحمية في الرؤوس وتناقلت الأنباء خبر مقتل أبي فتنة بعد رجوع أخوتها الى ديرتهم . وجد عز الدين أبو حمرا أن الفرصة قدمت له على طبق من ذهب لكي ينتقم من المساكنة ويوقفهم عند حدهمً بعد أن ملأ صيتهم الآفاق .

حضّر أهل فتنة أنفسهم إستعداداً لما توقعوه ، وهو أن يأتي أهل أبي حمرا ليطلبوا العطوة ، ولكن الأمر كان يجري على غير ذلك ، فقوم

أبي حمرا إضافة إلى حبهم بالبطش بالمساكنة ، تنبهوا إلى أن المساكنة قد يغيرون عليهم فجأة إنتقاماً لرجلهم . لذلك بعثوا برسول إلى السعادنة الذين لبوا الطلب فقدم منهم ألف فارس في تلك الليلة تجمعوا في منتصف الليل مع قوم أبي حمرا وساروا في الدروب المشرفة على بيوت المساكنة . وقبل إنبلاج الصباح ، وكان المساكنة نياماً ، ولم يفطنوا للأمر ، فهبت عليهم الرجال من كل حدب وصوب ، فأفاقوا على مقتل ألف رجل منهم . وبعد مقتل الرجال هرب من هرب وأسر من أسر ، والتجأ الفارون مع النساء إلى بلدة مجاورة يسكنها قوم آخرون أدخلوهم في حماهم وأصبحوا حماتهم . وقيل أنه لم يبق من المساكنة سوى ثلاثة وثلاثين رجلاً .

نهب قوم أبي حمرا والسعادنة ما نهبوا ، وبعد أيام وكان الرجال ما زالوا منتشين بخمرة النصر ، جاء « طارش » من قوم الشيخ « رحال » الذي أجار المساكنة ، يطلب منهم الصفح والصلح مع المساكنة . لم يرغب قوم أبي حمرا والسعادنة في رفض طلب الشيخ رحال ، لا لأنه رجل حكيم فصيح اللسان يجمع الناس حوله ويطلبون مشورته بل لأنه أيضاً ذو عزوة كبيرة لا قبل للسعادنة ولقوم أبي حمرا بهم ، وخشية أن يدخل رحال في حلف مع من تبقى من المساكنة .

عقدت راية الصلح ، وأقيمت الولائم ودفع أبو حمرا ديات الرجال واستضاف الشيخ رحال المساكنة ليالي ثلاث حيث قدمت المناسف وذبحت الذبائح للجميع وساد الوئام محل الخصام .

عقد المساكنة على أمر ما .. وهو أنه في المائة سنة القادمة عليهم أن

يسالموا حتى يتكاثروا وتقوى شوكتهم وهذا هو ما حدث ، حيث أصبحوا قوماً ذوي بأس يعادل بأس قوم أبي حمرا . لم يعد الناس في تلك النواحي يذكرون الحادث إلا كحادث تدخلت فيه عناصر فساد لتفرق العرب . أما فتنة فقيل أنها بعد الصلح ماتت حزناً على أبيها وإخوتها وكمداً لأن لا أحد يستطيع الإنتقام لها من قوم أبي حمرا ...

.. قال رفيقي في السجن .. لم تخبرني بعد ، ما زال عمران الحمراوي يعيش للآن .

قلت له .. بعد أن رجع عمران من عند اليهود الذين حسبوه القديس يوسف ، ارتكن إلى زاوية بعيدة عن البلدة وأقام تكيته الصوفية التي يزورها الأحباب ويقيمون فيها الولائم والصلوات بعد أن عرف الدين . لكن الناس سرعان ما إنشغلوا بحياتهم وأخذوا بالإبتعاد تدريجياً عن الصومعة ، لكن عمران الحمراوي ما زال وقد نيف على المائة .

مضت سبعون يوماً قبل أن تتفهم الحكومة ما جرى لي في شارع «الجاردنز» وتأمر بالإفرج عني . ابتهج أهلي عندما وصلت المنزل ، فقررت أن أسكن العاصمة ، وقد أصبحت مشهوراً تتناقل وكالات الأنباء أخباري خصوصاً بعد المؤتمر الذي إنعقد في «سان فرانسيسكو» لتفسير ظاهرة شارع «الجاردنز» .لقد تعبت من كثرة ما أدليت بتصريحات للصحافة المحلية والعربية والدولية .

قررت أن أدرس الفلسفة في الجامعة علّ الفلسفة تجيب على تساؤلاتي الكثيرة حول هذا العالم . وهناك إلتقيت بالدكتور المستشرق «فاسكوا نيكادوا» الذي أصبحت رفيق سهره .

وفي تلك الأيام تعرفت على امام العاشقين الذي قال لي ، بوادر الحب فيك دفينة .

فقلت له تابعك ومريدك يا سيدي من الآن .

قال لي ، ستحدد الأيام إن كنت عاشقاً وتصلح أن تصير تابعي أم لا ......

وهكذا أصبح فاسكوا رفيقي في الفكر والامام رفيقي في عالم العشق والمريدين .

وماذا بعد ، قال لي المحقق ؟

قلت له ، ما حصل لا يرويه إلا من قال «لا بالخبز يحيا الإنسان ، بل بالحب» .

فحكم عليّ بالصلب .. على أبواب مدينة العاشقين .



الفصل الثالث

« ما أنت يا قلب
سوى نفحة حب
فادخلني في هواك
علّ الهوى بقلبي يجبني
ويا امام العاشقين
من مضّه الحزن واضنته السنين
من له الآن غير قلب عاشق
وحسـن لا يلين
يا امام العاشقين »

ـــ من ترويدة التابع لامام العاشقين ـــ

ما أنا إلا إنسان عاش في هذه الديار فأحبها وأحبته .

قلت لفاسكوا الذي ما انفك يحدثني عن هواه في دياره البعيدة .

قال لي .. كانت كاميليا معشوقتي ، أحبها وتخونني مع رجال كثيرين وكنت أعلم ذلك ولكنني أحبها وتعلقت بها منذ زمن طويل . لكنها كانت تغافلني وتعاشر من لم يكن لي سويا .

ثارت ثائرتي ، وصحى فيّ البدوي القادم من الجنوب وصحت بعصبية عشرين قرن لما تزل في داخلي .. أولم تغرس خنجرك في أحشائها ؟

نظر إلي بعد أن تناول سيجارة وأخذ منها نفساً وسكت . سكتُّ أنا أيضاً .

قال لي .. إنك لما تزل بدوياً ولن تخرج منك آلاف السنين هذه

المدفونة في أعماقك إلا بعد جهد جهيد .

قلت له .. مستحيل فهل أقبل أن تعاشر حبيبتي كل الرجال وأسكت، إنه عار ما بعده عار .

كنت أعود وحيداً والخمرة تملأ رأسي وأردد أغنية مارسيل .. وحين أعود للبيت وحيداً .. وهاأنذا أعود وحيداً بعدما تركتني حبيبتي يا مولاي .. يا إمام العاشقين مريدك وتابعك أسكره العشق وضجت فيه السنين الدفينة منذ العصر الحجري . صحوت باكراً هذا اليوم وكنا على موعد ، وصورتها لا تفارقني ، هاتفت صديقاً لي كي يقرضني بعض النقود لألقاها ، وحالتي طفر مستمر .

.... قلت لها أحبكِ .

نظرت إليّ مطولاً وكأنها ترى فيّ أجدادي القدماء وكأنني عشت حياة سابقة ، وكانت هي الأخرى تعيش حياتها السابقة ولعلنا قديماً وقعنا في الحب ، من يدري؟

قلت لها .. تحدقين بي طويلاً هذه الأيام .

قالت .. أخشى عليك أن تجن من هذا العشق وأخالك تحب أن تكون كذلك ، دون أن تفعل شيئاً يستحق أن يتوج به حبنا . ضحكت كثيراً .

فقلت لها .. أتستخفين بي وبحبي لكِ ، مع علمي أنها أيضاً مجنونة بي .

قالت .. ما هكذا قصدت ، لكنك ما تفتأ كلما جلسنا في لقاء أن تذكر حبك لي ، ما العمل بعد ذلك ؟

قلت لها العمل هو أن نتزوج أيتها الجميلة الصغيرة بعد أن تكتمل

أموري . قالت بعد أن أطلقت ضحكتها المعتادة ، على هذه الحالة فلن نتزوج قبل أن تسدد البلاد مديونيتها التي تراكمت نتيجة الفساد .

ضحكت من الفكرة . وقلت لها اصبري وسأفعل ما بوسعي ، ألا تعلمين بأنني من قوم أبي حمرا ونحن عشيرة كبيرة ولن يتخلوا عنّي .

قالت لي عندما سجنت تخلى عنك حتى اخوتك المقربون ، سكت . جاء النادل فطلبت هي شاياً بالنعناع قلت له ويسكي دبل حاولت أن تلغي طلبي ، فنظرت إليها فسكتتْ ...

خرجت يا امام العاشقين ثملاً بحبها وبفعل الويسكي .

قال لي فاسكوا غريبون أنتم أيها الشرقيون تحسبون أنكم تعيشون في زمن الحب العذري ، الحياة اليوم مختلفة ، لماذا هذا التعقيد ؟

قلت لها ماذا قال لك أبوكِ ؟ لم تعلق بشيء .

... قلت لفاسكوا ذلك ، فقال لي وما دخل أبيها في الأمر ؟

قلت لها : ما رأيه بي وكيف ينظر إليّ ؟

قال فاسكوا ، أنه عندما تزوج لم يكن يملك إلا راتبه الحكومي .

قلت لها نستأجر غرفة ومطبخاً ولا داعي للتلفزيون .

أجابت والناس الذين سيأتون لزيارتنا على ماذا سيجلسون ؟

قال فاسكوا ، لقد قاطعت دعوات الناس مدة طويلة لأنني لم أكن أملك في بيتي ما يجلسون عليه . وبعد أن استقرت أمورنا وتحسنت أوضاعنا اشتريت أثاثاً كاملاً .

قلت لها سأستدين من البنك .

قال فاسكوا ولماذا تغرق نفسك من البدء بالديون . . .

خرجت يا امام العاشقين إلى الناس أنظر في كل الإتجاهات ولا أدري كيف وصلت إليك . هل حقيقة أنني ثمل ؟

أعلم أنك لا تشرب ، ولكنني ثمل والمرحلة ثملة والحزب ثمل . لقد تركت الحزب يا سيدي ، لأنهم لا يريدون لعقلي وقلبي أن يعملا ، اختلفنا كثيراً ولم يعد يذكرني أحد «غير قلبي والطريق» . لكن هل يكفي ذلك يا سيدي وطعم الفراق قاتل ، والرفاق ما عادوا رفاقاً . لفظني الجميع فأحببت أن أعرف نفسي ، فنظرت في ذلك اليوم في شارع الجاردنز إلى نفسي لكنني لم أكن أنا . وكيف أكون وقد فقدتني وأصبحت نصفين نصف يعيش على رصيف عطية الأخ ومنحة الأخت ونصف جائع إلى الحب والعشق . عندما أركن إلى الصمت قبيل النوم تنمحي ذاكرتي إلا من صورتها ، يا امام العاشقين .

فاسكوا غادر إلى بلاده ، وأنا لا بلد لي ، صحيح أنني أعيش مع العشيرة لكنهم منذ حادث الجاردنز ما عادوا العشيرة ، صحيح أنني أعتز بنسبي إلى الأمير عز الدين أبو حمرا وأنني من قوم عمران الحمراوي ، لكنني مفلس الآن لا أرض لي ، لا كرامة ، لا حبيبة . فأين هو الوطن الذي أنشدنا له ونحن صغار . يا أمير العاشقين علك تكون مثلي وأنا لا أدري ، فاسكوا كان يتعجب من تعصبي لعشيرتي ، قلت له لقد فقدتم بحضارتكم المدنية كل معاني الآخاء والعونة ورابطة الدم .

قال ولكن ماذا استفدتم أنتم من الحفاظ على هذه الأشياء . نحن بنينا دولة عظمى وأنتم كنتم دولة عظمى ولكن ماذا أصبحتم ؟ قلت لحبيبتي لماذا يصرُ والدك على أنني بدوي ، وأنه لا يزوج إبنته لبدوي

غريب . أحسب أننا أخوة تربطنا منذ جئتم إلى البلاد روابط الدم والآخاء ثم أن أباك قومي ، فلماذا يصر والدك على الحكم عليَّ غيابياً وهو لما يعرفني بعد وبدون إعطائي حق الإستئناف ؟

قالت والدي يقول لماذا لا يتزوج من بلده أفضل له ؟

... كانت سلمى ونحن صغار تريد نقش إسمي على يدها وعندما كبرت أصبحت مثل تيسير السبول ، أريد أن أرى وشم دولة حرة عظمى على ساعدي . هاجسي دولة حب ديمقراطية .

فاسكوا لا يحمل وشماً لدولته العظمى يا تيسير ، إلا أنه أفضل منّا بكثير وأنا منذ أن أطلقت طلقتك الأخيرة أسيرُ مع الوهم نحو تخوم النهاية وإن كنت أعرف أنني لست نبياً أملك الدليل والآية . وهاجسي دولة عظمى .

... لكن ماذا تفيدك دولة عظمى لا تستطيع إطعام الشرفاء من أبنائها ؟ لماذا سنفترق ؟ قال لي ، والحب يصبح ذكريات ولماذا عندما نلتقي نهتف «مرحباً» فقط ونمضي .

عندما أخبرت عدنان بقصتي وكنت كالعادة ثملاً منذ فراقي لها .

قال لي لو عشت رجباً لرأيت عجباً ولي أربعون عاماً لا أرى عجباً .

قلت له لا أريد العيش في رجب ولا رؤية العجب . أنا متأكد أن ما حدث لي في شارع الجاردنز له علاقة بقطع علاقتي مع حبيبتي . والمؤكد أن نبوءة الحاجة سارا في طريقها للتحقق عندما قالت .. تعيش حياتك منفياً وأدركني الطبيب بقوله مقتلك قلبك وقلبك مقتلك . لكنني ولد سمعان أبو ربابة الذي لا يجاريه أحد لا قبل ولا بعد .

كان فارساً من الفرسان يسابق الريح ويلعب بالرمح ويلتقط الكرة برمحه من الأرض وهو على فرسه الشهباء ، والشهباء هذه كانت تأكل اللوز والسكر وكنا صغاراً نطعمها بأيدينا السكر وتحن علينا ونحن نلاعبها كأم تحن على صغارها وكنا نسيء إليها أحياناً وننخزها بالمسامير وكانت تتحمل وتصبر كرامة لأبي فارسها الذي يحنو عليها وكأنها ترد له الجميل .

ليت كل الناس مثلها فصديقنا جميل الذي كنا وإياه رفاقاً وأصدقاء ينام في بيتنا الليالي الطويلة وكنا مطاردين معاً إكتشفت فيما بعد أنه خائن وناكر للجميل فسقط من عينيّ إلى الأبد وخسر هو نفسه عندما وضع نفسه مطيه للآخرين وممسحة لأحذية السائرين إلى أعلى على ظهره وهو واقف في مكانه حارساً على أملاكهم وعقاراتهم .

قال لي هذه جدلية الحياة .

قال لي فاسكوا قبل أن يغادر ، لا تدع الفلسفة تؤثر عليك كثيراً فإني أراك تنظر كثيراً وتفلسف أشياء لا حاجة لفلسفتها لأنها واضحة.

قلت له أهكذا تضيع أمجاد عز الدين أبو حمرا والبلاد التي عشقها. في نيسان جاءتنا أخبار الجنوب وبطولة عمران الحمراوي فيها ، اتصلت به كي أطمئن عليه . قال لي نحن نفعل ذلك من أجلكم . بعد أيام كنا في السجن هو في مكان وأنا في مكان . عندما خرجنا كان وجهه متفتحاً على غير عادته سألته كيف رأيت السجن ؟

قال لي .. مدرسة . فذكرته كيف وقف بوجهي هو والعشيرة عندما

سجنت أول مرة . قال لي كان زمان ...إنكسر الخوف الآن وأعاد لنا نيسان هيبتنا التي خسرناها .

... عندما كنت في السجن ، قلت لها ، كانت صورتك هي أنيسي في وحدتي تنير لي ليل السجن القاتل .

قال لي فاسكوا ، لماذا تسمونها انتفاضة ؟ ثم أنكم ما مررتم بما عشناه نحن . مئات الآلاف من الشهداء . لم تعيشوا الإحتلال الفاشي ولو عشتم بذلك لقلتم نحن بألف خير . أجبته أنها تجربتنا الأولى وهي التي أعادت الصحوة للبلاد وما نحن الآن فيه من حرية هو بسببها . لم يعجبه الأمر وشربنا الكأس الأخير وزاغت منا العيون ... أنا متأكد أن داخل فاسكوا يسكن بدوي قديم منذ ألف عام ، ولعله سليل نسل عربي، فالدماء العربية واضحة فيه مع أنها لا تجري في عروقه وإلا لكان قد غار على حبيبته التي تخونه .

زجاجة الخمر نفذت وأريد التقيوء ... هل أوقظ أمي من النوم كي تصنع لي ميرامية وشيحاً . لا أستطيع الوصول لها لأنني أصبحت ثملاً جداً ... أريد التقيوء وإخراج العفن هذا من داخلي أريد أن أنتفض على ما بداخلي من عفن وفساد ابتلعته . أزحف إليها كما كنا نزحف أيام الحصار ومن خندق إلى خندق والقنابل تتساقط حولنا . المسافة للنجاة تتطلب عبور أنفاق طويلة . أين الميرامية والشيح . القذائف تتساقط وأنا أريد التقيوء . نريد الوصول إلى القاعدة والقذائف لما تزل تتساقط . سقطت قذيفة بجانبي وأصابتني شظية فلم أدرِ بعدها بشيء ...

عندما صحوت باكراً كانت أمي بجانبي وكأس الميرامية والشيح .
إلى متى ، قالت لي ، ستبقى على هذه الحالة ؟
قالت لي الممرضة الإنجليزية .. يو آر لكي .. يعني أنك سعيد الحظ لأنك نجوت فقد استشهد جميع رفاقك وكاد الأعداء يأسرونك .
قلت لها أين أنا ؟
أنت الآن في عيادة المخيم قالت لي .
سألتها أريد ميرامية فتعجبت من طلبي ، وقلت لها أنا من قوم عز الدين أبو حمرا ، فازداد تعجبها . أكيد أنها لم تسمع بالإسم من قبل . ما ذنبي ، مع أن الإنجليز عندما كتبوا تاريخ بلادنا أشاروا إليه وإلى أنه كان في السابق حامي النظام والأمن في قريتنا الجنوبية .
قلت لها .. أشم روائح قريتي وعمران الحمراوي في تكيته .
قالت أمي .. أنت تهذى فأنت الآن في عمّان .
قلت لها أين رفاقي هل استشهدوا ؟
قالت .. قتلتني أنت عندما تعود كل ليلة من سهرك ورائحتك تملأ الحارة .
أين رفاقي ، قلت لها ، هل أسروا ، أين قائد القاعدة الرفيق أسعد ؟
تعجبت مني وقالت هل أنادي أخاك ناصر ...؟
... الممرضة الإنجليزية تنظر إلي وهي تضع الجلوكوز للمرة الثانية في يدي . قالت هذه كفايتك حيث لا يوجد لدينا المزيد والجرحى كثر . سألتها أين أخي ناصر ؟ قالت لي في بيتكم . شعرت بلهجتها تتهكم عليّ .

فاسكوا أخبرني إننا انتصرنا ، مع أن البلاد ضاعت منا ...

عندما رجعت إلى بلادي خضعت للإعتقال والإستجواب . سألني المحقق عن الجروح في يدي ورأسي .

قلت له كنت في لبنان ، فأودعني السجن .

أخي ناصر حضر وأركبني سيارته ومضى بي إلى المستشفى . نوبة أخرى من الربو . قلت له تعبت من الأطباء وتعبوا من غرز الإبر في يدي . قال الطبيب .. عندما تستقر أمورك نفسياً وتتزوج ستخف أعراضك . مجنون ، قلت له قال لي أحسبك مثقفاً تعي أن هذه الأمور، عدم الشغل والإضطهاد ومشكلاتك الخاصة كلها تؤثر عليك صحياً . أكره المستشفيات منذ أدخلنا أخي إلى المستشفى لكي يجري عملية الدسك وأخرجوه لنا جثة هامدة . وأنا أكره المستشفيات الحكومية . أدخلوني إلى المقبرة ! أعني إلى المستشفى . خلت أنني أمام ناكر ونكير . يا ويلي ماذا أقول لهم ، وأنا لم أفعل ما يرضي الله في حياتي طولها . كان الأطباء بأثوابهم البيضاء من حولي ، وضعوني تحت الكهرباء المسلطة عليّ بشدة في غرفة العمليات وضعوا الجلوكوز وبدأ طبيب التخدير بإعطائي الإبرة .

قال لي كيف حالك ؟

قلت له حالي ، كيف تريد أن يكون ونحن نأكل السمنة غير المكررة المعبأة بصهاريج النضح ويتسمم المرضى من الأكل الفاسد في مستشفى الجامعة .. ولم أعِ بعد ذلك أي شيء .

... الممرضة الأجنبية قالت لي أنني كنت أهذي بإسم لم تميزه جيداً .

قلت لها أين أنا وأين أخي ناصر ؟ أجابتني أنها لا تعرف أحداً بهذا الإسم .. عندما جاءوا بك إلى هنا ، قالت لي ، كنتَ على شفا حفرة من النار ولكننا إنقذناك .

.. المدينة جميلة وكنت ثملاً وإلى جانبي فاسكوا ، قلت له فلنعرج على أي مطعم شعبي لنأكل الفول والحمص فأعجبته الفكرة ، والأجانب عادة يعجبون بأكلاتنا الشعبية ...

كان امام العاشقين أمامي وعشرات من فناجين القهوة التي أحضرتها زوجته لي لكي أصحو . وصحوت . لقد وضعتني في متاهة ، قال لي ، وأنا الامام الذي لا ينبغي أن يعيش المتاهة فكيف أحلُّ مشكلتك يا تابعي ومريدي ؟

قلت له .. أتسألني وأنت الامام وأنا العاشق تقتلني الخمر ، فساعدني كي أستعيد الوعي ، مللت من تغييب العقل والوعي ، ما دمنا بكامل وعينا ولا نفهم الناس فكيف إذا غاب الوعي منا ؟

قال لي ها أنت قد وجدت الطريق .

قلت له ضيعت الطريق بعد أن تركت الحزب . قال لي ما زلت صغيراً على العشق القاتل رويدك قليلاً ريثما تصحو من نوبتك هذه .

بعد فترة من التفكير قال لي امام العاشقين .. إن أمرك يا بني ليس مستعصياً ،فقط كن في دائرة الحب مع الله ولا تبال .

هزئت به وبأفكاره هذه . عندما وصلت المنزل كنت على وشك الدخول في دائرة الحب تلك . أخذت أفكر بالأمر ، أميري عز الدين أبو حمرا وقومي يتركونني نهشاً للذئاب . صرخت أين أنت يا أبا حمرا ، لكن

صرختي ضاعت سدى .

عندما صحوت كان فاسكوا قد غادر وامام العاشقين في القاهرة التي يحب ، كان الليل يسدل ستاره الكثيف ، خرجت إلى الشوارع أبحث عن نفسي علني أجدها بعد أن ضاعت مني في شارع الجاردنز ... واندمجت مع آلاف الضائعين في ليالي عمّان .

*****



في الحياة لا وجود للمتفرجين
ايها الناس .. لقد أحببتكم
اسهروا

— يوليوس فوتشيك —

حدثني عنها قال لي إمام العاشقين .

إتصلتْ بي هاتفيا موعدنا الليلة كي نلتقي نرتشف رضاب الحب ونحتسي خمر العيون وأقتات بالنظر اليك يا حبيبتي .

حسنا موعدنا الليلة ، قالت لي ، الأمر مهم .

برجي طالعني اليوم « مفاجأة غير متوقعة والأيام القادمة ستشهد تحولاً نوعياً في حياتك » ، إستعذت بالله من الضاربين بالرمل والابراج

أُمي تقول لي ، النسوة مغرمات بك ، مع أنَّ مظهرك بريء جدا وطفولي . قلت هذا هو الأمر .

نظرت عزة الي وأمسكت بيدى وقبلتهما إقتربتُ منها ونشيج صدري يعلو ودموعي كأمطار التشارين في بلادى .

في ذلك العام غاب عني تشرين او غيبت عنه . كنت خلف الجدران فلم أشهد تشرين البلاد التي احب . ولم تكتحل عيناي برؤية أمطاره من خلف زجاج نافذة بيتنا بينما ادخن سيجارتي .

سنفترق ، قالت لي ، فقد وافق أبي على خطبتي من قريب لي .

لم أصعق من الأمر بعد انْ عجزتُ انا عن نيل رضا أبيها . بكتْ كثيرا وبكيت معها . بعد ايام قليلة سأزف الى زوجي .اثقلني الهم ، قلتُ يا ربِّ الحلاج ، كيف يموت حبنا في هذه الديار ، ولا استطيع الزواج بمن احب لأنني ... لا أملك ما أقتات به او اطعمها اياه .

كأنني كنت مع فوتشيك تحت عود المشنقة لكنها مشنقة مختلفة . مؤنس تحدث عن ضياع الأعراب في ناطحات السراب وأنا اعيش وهم وسراب والحقيقة تقتلني ، فبعد ايام لا أعود املك سوى الذكرى . حدثتها عن الرفاق وكيف انه لم يعد يذكرني احد منذ افترقنا غير قلبي والطريق . وها هو قلبي يضيع مني ايضا كما ضعت أنا وضيعت الطريق . فكرت ان أفعل ما فعل « ديك الجن الحمصي » ، لكنني تراجعت جبنا وخوفا .

قال لي ابو محمد رفيقي الذى يكبرني بأربعين عاماً ، العشق جنون ، قلت له فأنا اذا مجنون . أحضرت زجاجة خمر كي اقتات بها في هذه الليالي القاتلة .

قالت عزة ، هذه الخمر ستقتلك ، قلت لها انت مقتلي ، وأضفت ، لأن « العاصفة وعدتني بنبيذ وبأغان جديدة وبقوس قزح » .

قالت فليكن ، هذا الجرح « في ليالينا الحزينة » . قبلتها كثيرا في

تلك الليلة .

قال صديقي ، الحق كل الحق على فاسكوا قلت له وما ذنب المسكين الذي يتهمني بأنني أحوي في داخلي بدويا منذ آلاف السنين . وأمام العاشقين في القاهرة بعيدا عني . اقسمت امي ان مقتلي قلبي وقلبي مقتلي . وهذا هو ما قاله لي الطبيب بعد خمسة عشر عاما من ذلك . عندما بكت تلك الليلة احسست بأنني املك الدنيا كلها ولا أملكها وهي القريبة مني جسدا وروحا . ضممتها الى صدري ونمنا تلك الليلة على هذه الحالة .

قالت لي في الصباح ، هل اصنع لك قهوة ام شايا ؟ قلتُ أحنُّ الى خبز امي وقهوة امي . جلسنا نشرب القهوة ويدها بيدي . آخر عهدنا قلت لها ، هل يكون الآن ؟ نظرت الي وكلها حزن وفي عينيها الكثير الكثير مما تود قوله .لبست ملابسي كي أمضي ، والسؤال يلح علي ، كيف سأعيش دونها وهي التي احببت فيها كل شيء ، وهي التي اخبرتني عني . وعلمتني كيف أكون ، ولذلك كنت !

قال رفيقي .. يا رفيق انت رومانسي .

قلت له .. انت لا تفهم النوازع الأنسانية وتدعو للأنسانية . عجبا .

هكذا أنا وغير ذلك لا أكون . ليلتنا الأخيرة كانت أجمل الليالي، هي الآن بين ذراعيه وأنا احتضن الكتب والمنشورات السرية وزجاجة خمر تطفيء ظمأي .

عندما صحوت بعد ليلة سكر طويلة وجدت على طاولتي هديتها باقية اهدتني سنسالا ورسما لحنظلة علقته في صدري كي احتفظ به طوال

عمري . كلما نظرت الى السنسال تذكرتها . اعلم انني اكتب هذه الرواية وقد لا تقرؤها .

فاسكوا قال لي ان الرفاق صادقون ، فانت شديد الرومانسية ، ولما تزل بريئا .

قلت له انه العشق . امام العاشقين حدثني عن سليمى التي هجرت حبيبها بعدما اغرم بها وعندما مات وعادت هي من الغربة كانت تطوف القبور على تأنٍ لتعرف اين يرقد الحبيب الأول .

يا أرقي الدائم الكأس العاشر أعماني وأنا في مقعدي احترق . وعندما ادخلت الى المستشفى وأنا اصيح .. اين الحمراوي لقد تخلى عني وسارا ملعونة ، اسلمتني للنبؤة لتقتلني ، قال الأطباء لأهلي ، لا بد ان يبقى عدة ايام ، كنت أغيب عن الوعي اياما وليالي رغم المهدئات والأدوية التي يعطوني اياها .

قال ناصر سأخرجه من المستشفى مهما كلف الأمر ،لن أتركه لأطباء الحكومة ليقتلوه . أجابه احدهم ان الأطباء افهم منا فلندعه لهم يعرفون حالته . قال حفيدي الرابع عشر انني قضيت شهورا تحت مجسات الأطباء ومهدئاتهم ، وأنا لا أملك حراكا ولا استطيع الفرار حلمت برحّال وفتنة ، حلمت بعز الدين ابو حمرا ، وعمران وشاهدت سارا تبتسم لي وتحدثني بنبؤتها .

ليتني استطيع الفرار من هذا الجحيم ، أين أنت يا عزة ؟

قال ناصر سافرت .

فاسكوا اخبرني ان زوجته هجرته .

اللعنة عليك وعلى زوجتك . أنا همّي أكبر . قال الطبيب يحتاج للبقاء تحت العلاج . اخبرني حبيب انني اذا متُّ فسيكتب أجمل القصائد فيّ وأنه سيقف ليسكب الخمر ويقرأ لي اشعار عرار الجميلة .

فاسكوا قال ان طريق العشق طويل ، ومجنون من يمشي فيه . لعنته ولعنت حضارته وقلت له ان الحب عندكم جنس فقط ونحن الحب عندنا موت .

... عيسى لا يصدق ما أقوله . لكنها الحقيقة . أبو العيسى كما يحلو لنا أن نطلق عليه ، تاريخ حافل بالمشكلات والعشق ايضا ، اخبرني عيسى عن حبيبته .. وقال لي ان الحب نضال . قال رفيقي في السجن .. الحب مغامرة . فغامرت أنا لما خرجت وصارحتها بحبي لها وتعلقت بها وتعلقت بي .

هل نلتقي بعد ليلتنا هذه ؟ قلت لها .

نظرت في عيني ، وغادرتني طيور الفرح وأمحّت ذاكرتي منذ تلك الليلة .

عندما اخبرت إمام العاشقين بذلك قال لي ، وَيِ ، انت سليل عز الدين ابو حمرا ويحدث هذا معك . قلت له وماذا أورثني عز الدين أبو حمرا غير الفقر والنكد والتعب والهموم والمشاكل . انها نبؤة الحاجة سارا وعمران وأمي وسمعان أبو ربابة وجميع اولئك القاطنين في اعماقي منذ آلاف السنين ولا أستطيع التخلي عنهم فجأة فهم إرثي ، وأي إرث .

خرجت بعد أحداث نيسان لألقاها . لم يعد الاّ الأمل بعد ان سرق

بروميثيوس النار وامتلأت الدنيا بالشرور «والبندورا» تحمل صندوقها ، لا تفتحيه أرجوك ، فأنا لما أزل عاشقا . كان لقاؤنا جميلا جدا وهي أجمل من رأيت .لبست احلى ملابسها وتزينت لي بعد خروجي من السجن .

قالت لي أنا حامل ! يا الله ، حامل ؟

منذ متى قلت لها . ماذا ستسمينه او ستسمينها ؟

لا أعرف قالت لي ، يومها كانت سعيدة ورجعت أنا الى البيت مهموما مكتئبا . حزن شديد وغمّ شديد وهي الآن بين ذراعيه وأنا استلقي على سريري وحيدا ، أشرب القهوة . لا برّ الا ساعداي ولا بحر الا ساعداي ومن سيساعدني ؟

قالت هو كذلك .

وانقطعت اخبارها عني ، وانقطعت رسائلها . لا أدري ما حلّ بها وأناالآن ما زال الطريق امامي امشي وأمشي لكي نلتقي يوما .

هكذا قلت لفاسكوا ، هكذا أخبرت إمام العاشقين ....

*****

الفصل الخامس

سبحانَ رَبّكَ كيف يلتَذُّ أمْرؤٌ . . . . . بالعَيشِ وهْوَ بنفسهِ مطلوبُ

ــ أبو العتاهية ــ

وكيف كانت آخر ليلة معها ؟ سألني إمام العاشقين .

طرقت الباب . فتحت لها . دخلتْ . امسكتُ بها بلهفة ، وضممتها الى صدري . كانت بأجمل أبهتها .

جلسنا معا ملتصقين . عزة . الرحيل قريب . ستذهبين ، وأنا سأعود الى الحواري والطرقات القديمة وزوايا المقبرة ، بعد ان نبذتني العواصم والدروب الواسعة . نبوءة لعينة ، ومصير ألعن .

ـ علاقة انفصامية ، قال طبيبي العزيز .

قلت لها ذلك . حدثتني عن خطيبها كثيرا ، وأهلها كانوا معه . قالت ... لا أتخيل انه سيمسك يدي و ... لا أتخيل ذلك أبدا الا معك انت . أحبك انت قالت لي ، ولن يمنعني أحد من رؤيتك ابدا .

امسكت برأسها وادنيته وقبلتها . غفتْ على ساعدي . إقتربت الساعة من السابعة ، اصلحت نفسها ونوت الخروج .

حاولت ان أثنيها ، لكنها قالت لي ... مهما فعلنا الآن فمصيره الى الإنتهاء والأفضل لي ان أغادر . تركتها تخرج مسرعة .

لو كانت الحاجة سارا على قيد الحياة هل كانت ستخلصني من هذه المشكلة ؟ منذ أيام وصحبي في العمل يلحظون تأخري وسرحاني الطويل . لم يسألوني وان كانت نظراتهم تنمّ عن الشكوى من حالتي .

ذهبت الى عيسى وحدثته بالامر بكل تفاصيله واستمع اليّ دون تذمر . قلت له .. لقد تركت الحزب .. هل اذا التقيتها ذات يوم ستلقي التحية وتمضي بعيدا فقط . قال عيسى لا تقتل نفسك بهذا التفكير .

قلت له لا بد ان أذهب الى إمام العاشقين كي اخبره بحالي وهو الذي ألمن اليه ولا يستطيع ردي ، وعنده الخبر اليقين .

قال لي عيسى ... كنا نعيش في بلدتنا البعيدة عن السلط ، وكنت شابا يافعا حديث التخرج ذا مستقبل واعد ، كما يقولون ، التقيتها ، كان أهلها غرباء عن البلدة ، سكنوها بعد نزوحهم ، أحببتها وأحبتني وكعادة الشعراء كتبت فيها أجمل القصائد ، فسمع أهلها بالخبر فمنعوها عني وجاء يوم سمعت فيه انها تزوجت ... هكذا تم الأمر قلت له ، قال لي .. حاولت خطبتها لكن .. وقف اهلي ضدي وامتنعوا عن الذهاب معي لطلبها ، وعندما ذهبت وحدي إلى أبيها ، نظر إليّ وقال .. أين أهلك أم أنك لا تعرف العوايد يا فتى . اذهب فما هكذا

يتم الزواج .

حاولت وحاولت لكن الجميع تخلوا عني ، حاولت خطفها فاشتكى أهلها علي ودخلت السجن ولم أخرج الا بعد أن وقعتُ تعهداً بعدم التعرض لها أو الأقتراب منها . مع ذلك لم أنثنِ ، الا أن أهلها قد منعوها حتى من الخروج .

وجاء صباح ، سمعت فيه أن أهلها قد حملوا أمتعتهم في الليل وتركوا البلدة . وانقطعت اخبارها .

قلت له نحن من نسل أبي حمرا وقد ولدنا كلنا رجالا ذوي شوارب يقف الصقر عليها ولم نعش مراهقتنا أبدا .

قال أخي الأكبر .. تزوج من العشيرة ، ودع الغريبة .

قال أبوها لها .. نحن لا نزوج بدويا شرقيا . ثم انْ كان يمارس السياسة فكيف ستعيشين معه وقد يقضي أيامه ولياليه في السجن ومن سيعتني بك . أهله ؟ نحن لا نرضى لك هذه العيشة .

قالت له .. ولكنني أحبه . قال لها .. ستحبين من ستتزوجين وسكتّ . قال لي إمام العاشقين أنه من إربد وأن أجداده من الخليل . قلت له لا فرق عندي أن كانوا من إربد أو من القدس . بعض التافهين يؤمنون بذلك . نظر الي وقال هل ستعطيني درسا في الوحدة الوطنية . ضحكنا معا وقلت له .. لا فأنت امام الوحدة .

..... عندما غادرت الحانة مترنحا لم يكن في جيبي غير دنانير قليلة.

كان المساء جميلا في هذه العاصمة تجولت في الشوارع وعلى الأرصفة ، صورتها أمامي . تصورنا ذات يوم ، رفضت إعطائي الصورة ، قالت سأحتفظ بها حتى نهاية العمر .

خذلتها أنت ، قال لي امام العاشقين . وكان الأحرى بك ان تتمرد وتعاند الجميع ، روحك متمردة على كل شيء الا هذه المرة كنت جبانا . من روضّ روحك المتمردة ، من ؟ لم أُجبه أبدا لأنني اعلم انني خذلتها وكان علي ان اتحدى الجميع ، لكن الأمر انتهى ..

قال لي الطبيب .. كل أسباب مرضك نفسية قلت له ولكنني لست مجنونا ، ضحك وقال ، أعلم ذلك .

كأن ما حدث لي في شارع الجاردنز كان قدرا مكتوبا . أصبحت افكر مثل إمام العاشقين . رفيقي في الزنزانة لم يفهم قصتي تلك الليلة وقال لي جميل هذا الفيلم المصري . أقسمت إنني اقول الحقيقة فضحك كثيرا . الشرطي ضحك مني وعليّ أيضا . غضبت منهم . خرجت من السجن وأبو حمرا ما زال في ذاكرتي والعنود ومكازي وفتنة التي فتنت الجميع وأشعلت نيران الحروب .

.. تلك الليلة أخبرتها بقصة أبي حمرا وقلت لها متفاخرا .. وها انت ترين نسل أبي حمرا أمامك !

قالت .. آه ، لو كان لك إرادة أبي حمرا . قلت لها .. الحاجة سارا قد أخبرتني أن مقتلي قلبي وقلبي مقتلي .

رجعت لاعنا شاتما أبا حمرا واليوم الذي سمعت فيه بهذا الأسم ،

الذي لم يورثني سوى الهمّ والمشاكل . ولعنت الحاجة سارا ونبؤتها اللعينة . فقدت عزة ولم أعد أراها . وذلك نتيجة الأيمان بالنبؤة التي صدقتها فأخذت إرادتي وكل المعالي . أي إرث ورثته . لو كان ابو حمرا قد سكن هذه البلاد ، الشميساني مثلا ، ماذا هي حالتي الآن . لكنه أبى إلاّ أنْ يسكن هنالك في الجنوب . حيث الفقر والجفاف .

بعد نيسان قال لي رفيق في الحزب يا ليتني من الجنوب . نظرت اليه وابتسمت .

*****

الفصل السادس

رَماني الدّهرُ بالأرْزاءِ حتّى
فؤادِي في غشاءٍ مِنْ نبِالِ
فَصَرْتُ اذا اصابَتْني سهامٌ
تكسرَّتِ النّصالُ علىَ النصّالِ "

ـــ أبو الطيب المتنبي ـــ

٤/٦/١٩٨٩..

تاريخ حافل ، العصافير اليوم على غير عادتها الناس كذلك ، السماء والاشجار وكل شيء على غير عادته . عندما صحوت أنا كنت على غير عادتي . في مساء هذا اليوم التقيت ملاكا جاء من اقصى المدينة يسعى فتلقفته بين يدي .

-.... ، ١٨٦٠ ،

الفتنة اشد من القتل والامير عز الدين أبو حمرا يغير على القوم الذين وقعوا في الفتنة راكبا فرسه متنطقا سيفه .

. . . . . ، ؟؟

احبك - لا اصدق .

- بل أحبك ، كما احب سمعان الناعسة وكما عشق مكازي عنود أنت

لي وأنا ملك عينيك الجميلتين .ضحكت طويلاً . ليلتها كانت أجمل الليلات خمرها أعذب الخمور .

- ١٩٨٦ . .

ثلاثة رفاق سجن واحد غرفة واحد ، وفلقة واحدة .

- الأول عندليب .

- الثاني حبيب

- الثالث لم يعرف نفسه بعد ، الا عندما تلاشى به الظل شيئاً فشيئا فأستبان الأمر أخبرني الأول عن وطنه .

أخبرني الثاني عن حبيبته . اخبرت الاثنين أنني ضائع .

. . . قالت أمي مقتلك قلبك وقلبك مقتلك والحاجة سارا قالت تعيش رجبا وترى عجبا . والآن لي ثلاثون عاما لا أرى عجبا . قلت لهم قصة عز الدين أبو حمرا ، ففهموني لاول مرة . . من يفهم قصة لا أفهم اولاً لها ولا آخر .

-١٧ نيسان ١٩٨٩ .

من بين الرماد أنطلقت شرارة تصاعد الدخان هبت ريح جنوبية أضرمت الجمر تحت الرماد ، فأندهشت إذ رأيت جمراً أحمر كثيف يشتعل ، هبت الريح اقوى ، فأشتعلت النار أقوى وأنطلقت . . . طائر الفينيق أنطلق .

. .... إنطلقنا في المظاهرات نهتف للوطن والحرية . جاءت الشرطة حاولت تفريقنا فأبينا ثم . . كان الاعتقال .

- ٢٠ نيسان ١٩٨٩ .

جاء من اقصى الجنوب يسعى . أقسم للي بأن عمران الحمراوي بين الرجال يقاتل . أبتهجت نفسي كثيرا . قلت له ما أروع الأمر ، وفطنت أن تلك نبؤة لم تكتمل ، وأن الحب لما يزل في قلوب الناس.

تشرين ثان ١٩٨٩ ،

عمران الحمراوي منهمك في الانتخابات ، قالوا لي . قلت لهم . . رأيت الحاجة سارا ترشح للانتخابات ايضا . فما تعجبوا للامر . ـ هل ستفوز ؟ نظرت اليه ومضيت .

١٩٣٦ ،

سمعان أبو ربابة يدخل حيفا بدأ العمال في الإضراب ، الانجليز يطردون سمعان فيعود الى البلاد التي أحب .

١٩٤٢ ، سمعان والناعسة يرحلان الى أربد . حيث سيعيش ثلاثين عاما .

ـ ١٩٦٧ ،

في حرب الايام الستة يصاب سمعان بطلقة في ساقه . يأتون بي اليه في المستشفى مجروحا أذ كنت قد وقعت في بئر قريب من الدار .

يسألني من فعل بك هذا ؟

فأجيبه اليهود . يضحك الجالسون .

ـ / ١٩٨٢ ،

بيروت والحصار وأنت . سلاحك رايتك الاخيرة ، تتذكر اليهود وأبي وأخي الجندى الذى أصيب في معركة الكرامة ، والفدائيون عندما كانت قاعدة الجبهة قرب بيتنا .

ـ تطلق النار ويطلقون القذائف عليك .

ـ ١٩٨٤ ،

عمان التي أحببت ، هانذا أعود يا عمان . من المطار الى السجن ، من سجن الى سجن . لم تكن وحدك ، بل جمع من الاصدقاء والرفاق يطول السجن لا لذنب اقترفته بل لأنك كنت في جبهة تقاتل الأعداء .

ـ / ١٩٧٠ ،

النيران مشتعلة ورائحة البارود وحمامة تحترق .. أم تموت منحنية على طفلها الصارخ في العالم . وحدك تمضي في أزقة المدينة التي لوثتها الحرب

. . . قال لك الضابط . . إقصفْ . فرفضت . ثم سجنوك .

قال لك قائد القاعدة . . إقصفْ . فرفضت . ثم سجنوك .

في الحالين سجن وفي الحالين أغبياء . وعندما خرج الجميع الى الاحراش خرجت معهم . ورأيت العصافير تطير محلقة في سماء وطن بعيد . فتمنيت أن تكون مثلها .

ـ نيسان ١٩٨٩ ، مرة أخرى

ـ هل وزعت البيان .

ـ وما الفائدة . ماذا سنفعل غير هذا البيان ؟

ـ مظاهرة قرب الجامع الحسيني .

رفضت ، ثم خرجت .

كانت الساحة أجمل هذه المرة . هتفت . .

« يا رائحين الى الجنوب معكم حبيبي راحْ

ليشعل الغضب في جثة السفاحْ
يارائحين الى معان
معكم حبيبي راحْ
ليعيد لي وجه الوطن ونهاية الاشباحْ
يا رائحين وخلفكم عينا فتى سهرانْ
ما زال يرقب طيفكم قمرا على عمانْ
قلبي تفتت وألتقى . . . في ساحكم وردة
عودوا بها والملتقى في ساحة العودة » .

. . فهتفت جميع البلاد وغنيت العصافير الجميلة .

ـ تشرين ثان ١٩٨٧ ،

رأيتها تبكي قرب الجسر الخشبي . ومرة رأيتها مستبشرة . ومرة رأيتها تقود مظاهرة قرب باب المخيم . ورأيتها مرات عديدة تسعف الجرحى ولكنني عندما نظرت في عينيها ذلك المساء وعرفتها . . أنكرتني .

ـ نيسان ١٩٩٠ ،

ها أنت وحدك . رحلت عزّة . غادرك فاسكوا . ورحل أمام العاشقين ليجاور سنة قرب قبر النبي .

تركت الحزب . تجَتَرُّ الآن أمجاد أبي حمرا والغابرين من عشيرتك . حتى العشيرة لما التجأت اليها جافتك . من لك الآن غير هذه الاحلام والرحيل المستمر في دنيا الخمر . فلتغب عن الوعي إنْ أردت .

في المطار نظر الضابط الى جواز سفرك ثم اليك . أعطاك الجواز

وتمنى لك سفراً طيباً . قلت له مسموح ؟ فقال لك بالطبع ! وفي قرارة نفسك تمنيت أن يمنعوك من السفر كما كانوا دوما .

لماذا هذه المرة تسمحون لي بالسفر ، قلت في نفسك ، وصلت الى باب الطائرة نظرت خلفك ، ورأيت البلاد التي أحببت تبتعد قليلا . . قليلا .

لكنك عند ذلك ، مزقت جواز السفر وركضت لتحتضن هذه البلاد وتقبل ثغرها وتبكي بين يديها ففردت لك ذراعيها وأحتضنتك ، والجميع ينظرون .

******

(تشرين ثان ٨٩ ـ نيسان ١٩٩٠م)



آخر الكلام

« بعد نيسان قال لي رفيق في الحزب ياليتني من الجنوب نظرت اليه وأبتسمت ».

* * * * *

« ١٩٨٣ عمان التي أحببت، هأنذا أعود يا عمّان. من المطار الى السجن، ومن سجن الى سجن، لم تكن وحدك، بل جمعٌ من الأصدقاء والرفاق. يطول سجنك لا لذنب أقترفته بل لأنك كنت في جبهة تقاتل الاعداء »...

* * * * *

« ورأيتني يوماً مصلوباً قرب بيت لحم، ومرة رأيتني أقود مسلحاً جماعة من الناس في الأحراش ».

الغلاف للفنان التشكيلي
حسين دعسه